الحلقة 3

المدينة الفاضلة ... للفارابي

إعداد: ربيع سكر

الحضارة العربية و الإسلامية هي حضارة كتب ومكتبات كان لها أكبر الأثر في تقدم وازدهار الحضارة الانسانية في العصر الحديث ، ومن المعلوم ان الإسلام يحض على العلم ويعتبره فريضة على كل مسلم، وقد ابتدأ القرآن الكريم نزوله بالآيات "اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم" وكانت الآية القرآنية "ن والقلم وما يسطرون" وقوله تعالى: "إنما يخشى الله من عباده العلماء" وقوله أيضاً : "يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات". وقد أحب المسلمون الكتب حباً ملك عليهم مشاعرهم وذكر ول ديورانت في كتابه (قصة الحضارة) " لم يبلغ حب الكتب في بلد آخر من العالم إلا في بلاد الصين في عهد منج هوانج ما بلغه في بلاد الإسلام في القرون الثامن والتاسع والعاشر والحادي عشر».

ومن المتفق عليه انه بدأت الحركة العلمية الاسلامية في القرن الأول الهجري، بجمع القرآن الكريم ونسخه، وجمع الحديث الشريف وتدوينه، والترجمة إلى العربية عن اليونانية والفارسية والهندية وغيرها من اللغات، والدراسات الفقهية، والأشعار والأنساب، وتسجيل السيرة النبوية والمغازي، وظهرت المكتبات الخاصة، وتطورت المكتبات ونضجت وازدهرت في القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) وبلغت ذروتها في القرن الرابع. وشهد القرن الثاني الهجري تطوير أو اختراع الورق الذي نقل الحركة العلمية نقلة مهمة وبعيدة فازدهرت صناعة النشر (الوراقة). وبنيت في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد مكتبة بيت الحكمة التي كانت مركزاً مهماً لترجمة الكتب التي جمعها المسلمون من خزائن الكتب في مختلف أرجاء العالم وكان المأمون يرسل العلماء المتخصصين للبحث عن الكتب وجمعها من مصادرها ، وعرفت أيضاً مكتبات المساجد والمكتبات الخاصة والمكتبات العلمية والبحثية ومكتبات الخلافة ومكتبات المشافي.

وكان المسجد مركزاً للعلم والدراسة إضافة إلى العبادة وذلك حتى زمن قريب ومازال بعضها كذلك حتى الآن في أنحاء كثيرة من العالم الإسلامي وأماكن تجمع المسلمين، واشتهرت مساجد كثيرة باعتبارها مراكز للعلم والفقه والبحث كالمسجد الحرام في مكة المكرمة والمسجد النبوي في المدينة المنورة والمسجد الأقصى في القدس، والمسجد الأموي في دمشق، والجامع الأزهر في القاهرة، ومسجد الزيتونة في تونس، ومسجد قرطبة، وجامع المنصور في بغداد.

لذلك فانه على الرغم من تفوق الحضارة الغربية في الوقت الحالي، إلا أن البدايات كانت عربية في العديد من المجالات، حيث أثرى العلماء العرب والمسلمون العلم في تخصصات مختلفة، بالإضافة إلى الأدب العربي الذي ألهم الكثير من الكتاب الغربيين، ونواحي أخرى متعددة .

وللاسف الشديد اذا سألت أحدهم : من هم العلماء الأكثر تأثيراً في التاريخ ؟ .. تكون الإجابة : اينشتاين ، داروين ، غاليليو ، نيوتن .. وغيرهم .. وهي إجابة صحيحة بلاشك ، لما قدمه هؤلاء من علوم واختراعات وأفكار ، كانت هي السبب الرئيسي في تقدم الانسانية ..لكن ، هل فعلا كانوا هم الروّاد الأوائل في تقدم البشرية ، ولم يسبقهم علماء آخرون مهّدوا لهم العلوم والمعارف التي جعلتهم يبتكرون مايبتكرون ؟ بالطبع سبقهم علماء اخرون أبدعوا وألفوا ووضعوا بدايات قواعد ونظريات وأسس العلوم الانسانية والعلمية.

وتقدم " الوسط " خلال شهر رمضان سلسلة من الحلقات بعنوان «كاتب وكتاب» وهي نماذج وأمثلة لمؤلفات عربية تركت علامة في الحضارة الانسانية في الشرق والغرب بطريقة او بأخرى ، فمن المؤكد ان التقدم الهائل الذي وصلت إليه البشرية اليوم ، لم يظهر بين يوم وليلة.. إنما جاء من تراكم هائل للخبرات والمعلومات والرؤى والنظريات والأبحاث ،التي توارثتها الأجيال جيلاً بعد جيل .. وقرناً بعد قرن .. و ارتكزت عليها الحضارة الإنسانية ، وقامت بالبناء عليها والتطوير فيها ،حتى وصلنا إلى ما وصلنا إليه الآن..

وجولتنا اليومية بين أوراق الكتب التراثية والحديثة وما نعرضه منها على حلقات خلال شهر رمضان المبارك ، هي دعوة للاجيال الحالية للبحث والتنقيب في تراث الأجداد من العلماء والأدباء والمفكرين العرب والمسلمين الذين علموا العالم بمؤلفاتهم وحبهم للعلم وأفنوا حياتهم في خدمة الانسانية جمعاء حتى بلغت الحضارة الإسلامية درجة عالية من الرقي بجهود العلماء المسلمين والخلفاء الذين شجعوا هؤلاء العلماء، فازدهرت الحياة العلمية في شتى نواحي المعرفة، وكان لمؤلفات العلماء المسلمين دور كبير في نهضة البشرية وتقدمها التكنولوجي الذي يعيشه العالم الآن ، وفي تلك الحلقات نلقي الضوء حول بعض مؤلفات العلماء العرب والمسلمين العظماء الذين كانوا يعيشون في العصور الوسطى ، فى مساحة جغرافية هائلة ، امتدت من الاندلس غرباً إلى تخوم الصين وروسيا شرقا ...فهل يُمكن ان نعيد انتاجهم بيننا من جديد فى هذا العصر الذي نعيشه الآن لنصنع نهضتنا العربية والإسلامية من جديد ؟

غلاف كتاب المدينة الفاضلة

الفارابي لقبه العرب بـ «المعلم الثاني» باعتبار أرسطو هو «المعلم الأول»

يرى الفارابي أن الرئاسة تكون بشيئين: بالفطرة والطبع.. وبالهيئة والملكة الإرادية

الفارابي كما يظهر على عملة كازاخستان

«المدينة الفاضلة» هي ذلك التعبير الذي يستدعي إلى الأذهان أحلام الحكماء والفلاسفة منذ «أفلاطون» حتى «توماس مور» وصولًا إلى العصر الحديث، ولكلٍّ نظرته الخاصة حيال تلك الحياة اليوتوبية المأمولة. و«الفارابي» الفيلسوف العربي الملقَّب بـ«المعلم الثاني» كان أول من تبلور لديه مفهوم متكامل للمدينة الفاضلة من منظورٍ عربيٍّ إسلامي، وهو موضوعُ هذا الكتاب الذي بين أيدينا.

نبذة عن الكتاب

يشتمل الكتاب على سبعة وثلاثين فصلاً، تناول فيها المؤلِّفُ خمسة موضوعات رئيسية، هي: الذات الإلهية ممثَّلةً في الموجود الأول، والعالَم بما يحتوي من موجودات؛ جمادات وكائنات حية وأجرام سماوية، والنفس الإنسانية، والأخلاق ومبادئها الأساسية، وأخيرًا حاجة الإنسان إلى الاجتماع. وهنا يصوغ الفارابي صورةً مُثلى للتعاون بين أفراد المجتمع من أجل مدينة فاضلة يسود فيها العدل، وينعَّم سكانُها بالسعادة، وتُمكِّنهم فضائلهم من الصمود مواجهة المدن الجاهلة.

وعن اهمية الكتاب ومضامينه الفلسفية والسياسية يقول الكاتب ابراهيم العريس في مقال له بعنوان «آراء أهل المدينة الفاضلة» للفارابي: خيال المبدع والأوطان السعيدة : على رغم خوض أبي نصر الفارابي في الأمور الفلسفية كافة، من مدنية ودينية وفكرية بحتة، فإن اسمه ارتبط خصوصاً بثلاثة أمور: نظرية الفيض، ومحاولة الجمع إسلامياً بين رأيي الفيلسوفين (الحكيمين) أفلاطون وأرسطو، وتصوره للمدينة الفاضلة. والحال ان قارئ كتاب الفارابي الأساس «آراء أهل المدينة الفاضلة» يتضح له ان هذا الكتاب الفريد من نوعه في الفكر العربي القديم، يجمع تلك الأمور الثلاثة في حزمة واحدة. ونحن نعرف بالطبع ان الفارابي، الذي لقّبه العرب بـ«المعلم الثاني»، باعتبار ارسطو هو «المعلم الأول»، تعرّض لأعنف درجات الهجوم من المتكلمين الإسلاميين، وعلى رأسهم الإمام أبو حامد الغزالي (في «تهافت الفلاسفة») الذي بدّعه وكفره في معظم مسائله، وتحديداً بسبب الكثير من الأفكار والطروحات التي جاءت في «آراء أهل المدينة الفاضلة». ومع هذا، وعلى رغم تحامل الغزالي، لا يزال هذا الكتاب حياً حتى اليوم، وعلى الأقل في جانبه السياسي – المدني، إذ يعتبر، في تاريخ الفكر، واحداً من تلك الكتب التي كان همّها ان تبحث للإنسان عن محيط فاضل يعيش منه.

وفي هذا الاطار، يقال عادة ان الفارابي، في بنائه لـ«مدينته الفاضلة» انما سار على خطى أفلاطون الذي كان بنى عالماً مشابهاً في بعض أقوى فصول «الجمهورية». ومع هذا ثمة الكثير من أرسطو و «السياسة» في «آراء أهل المدينة الفاضلة»، إذ يمكننا القول ان الفارابي هنا أيضاً في هذا الكتاب، سعى الى التوفيق بين فيلسوفي العصر الاغريقي الكبيرين، توفيقاً، لم يكن على أية حال، موفقاً، الا في النتيجة النهائية التي أدى اليها: توليفة المدينة التي رسمها أبو نصر، والتي استلهم منها المفكرون ودرسوها وما زالوا يدرسونها. ورب قائل: المؤسف، طبعاً، هو انها لم تستلهم ممن كان يجب ان يعنيهم الأمر، أكثر: الحكام. فمدينة أبي نصر الفاضلة، ظلت خيالية حتى يومنا هذا، ما يجعلها، على رغم واقعيتها، تصطف الى جانب مدن توماس مور وكامبانيلا وبيكون وغيرهم.

ومع هذا، ليست المدينة الفارابية الفاضلة، خيالية ولا هي تقع في جزر استوائية ولا تنتمي أبداً الى عالم الخيال – السياسي. انها مدينة ممكنة، وتنطلق من تلك الفكرة البسيطة التي أخذها الفارابي عن أفلاطون، وأورثها لابن خلدون (أكبر مطوّريها وأهمهم): «انما البشر، على تنافرهم، محتاجون الى الاجتماع والتعاون». أي ان الإنسان، وفق تلخيص د. ألبير نصري نادر، لفكرة الفارابي: «لا يستطيع ان يبقى وأن يبلغ أفضل كمالاته إلا في المجتمع. والمجتمعات البشرية منها ما هو كامل، ومنها ما هو غير كامل. فالكامل منها ثلاثة: العظمى (وهي المعمورة)، الوسطى (وهي الأمة)، والصغرى (وهي المدينة). وغير الكاملة هي: القرية والمحلة والسكة والمنزل». أما المدينة الفاضلة، فـ«شبيهة بالجسم الكامل التام، الذي تتعاون أعضاؤه لتحقيق الحياة والمحافظة عليها»، وكما ان «مختلف أجزاء الجسم الواحد مرتّب بعضها لبعض، وتخضع لرئيس واحد، هو القلب، كذلك يجب أن تكون الحال في المدينة». وكما ان «القلب هو أول ما يتكوّن في الجسم، ومن ثم تتكوّن بقية الأعضاء فيديرها القلب، كذلك رئيس المدينة». والرئيس هو انسان تحققت فيه الإنسانية على أكملها. فكيف يبدو للفارابي هذا «الرئيس» المستعار أصلاً من أفلاطون؟

إن الفارابي بعد ان يقول لنا ان «الرئاسة تكون بشيئين: أحدهما أن يكون بالفطرة والطبع معداً لها، والثاني بالهيئة والملكة الإرادية»، يقول: «ان الرئيس الأول في جنس لا يمكن ان يرأسه شيء من ذلك الجنس»، و «أن ذلك الإنسان يكون إنساناً قد استكمل فصار عقلاً ومعقولاً بالفعل». والفارابي يحدد 12 خصلة فطر عليها الرئيس: «ان يكون تام الأعضاء جيد الفهم والتصور جيد الحفظ لما يفهمه ولما يراه ويسمعه ثم ان يكون جيد الفطنة ذكياً وأن يكون حسن العبارة، يؤاتيه لسانه على إبانة كل ما يضمره، محباً للتعليم والاستفادة غير شره على المأكول والمشروب والمنكوح أن يكون محباً للصدق وأهله كبير النفس محباً للكرامة أن يكون الدرهم والدينار وسائر أعراض الدنيا هينة عنده محباً للعدل وأهله أن يكون قوي العزيمة على الشيء الذي يرى أنه ينبغي أن يفعل». والحال أن الفارابي إذا كان يركز هنا، وفي التفصيل، على خصال المؤهل للرئاسة، فما هذا إلا لأنه لا يتصور مدينة فاضلة لا يحمل رئيسها صفات تقرّبه كثيراً من صورة الفيلسوف الذي به ينيط أفلاطون تسلم الحكم في «الجمهورية». والفارابي يلفت الى انه إذا «لم يوجد انسان واحد اجتمعت فيه هذه الشرائط، ولكن وجد اثنان، أحدهما حكيم والثاني فيه الشرائط الباقية، كانا هما رئيسين في هذه المدينة». وإذ يصف الفارابي الرئيس والرئاسة على هذا النحو، يفصّل رأيه في المدينة الفاضلة، ولكن بالأحرى عبر تعريفه لمضاداتها، وهي «المدينة الجاهلة» (التي لم يعرف أهلها السعادة)، و «المدينة الفاسقة» (وهي التي تعلم كل ما يعلمه أهل المدينة الفاضلة، ولكن تكون أفعالها أفعال أهل المدن الجاهلة)، و «المدينة المتبدلة» (وهي التي تكون آراؤها في القديم آراء أهل المدينة الفاضلة وأفعالها، غير انها تبدلت)، وأخيرا «المدينة الضالة» (وهي التي تظن السعادة، ولكنها غير هذه).

وإذا كنا هنا قد ركزنا على هذه الأمور، فما هذا إلا لأنها تشكل جوهر ما كان يرمي اليه الفارابي، والذي وصل اليه بعد تحليل طويل ومعمق، في كتاب، يقسم أصلاً قسمين: الأول فلسفي والثاني سياسي – اجتماعي، علماً أن القسم الأول كان مجرد تمهيد للثاني. في القسم الأول درس الفارابي الله وصفاته، ثم صدور الكائنات عن الأول (نظرية الفيض التي دانها الغزالي أساساً)، ثم الإنسان الذي «يتمتع بإرادة حرة الى جانب العقل، وظيفتها تحصيل السعادة له بواسطة أعماله العاقلة». أما في القسم السياسي، وهو الأهم كما أشرنا، والذي يطوّر فيه الفارابي آراء وأفكاراً عالجها وبالطريقة نفسها في كتاب آخر له هو «السياسة المدنية»، فإن المؤلف يبحث كما أشرنا في «المدينة الفاضلة ومضاداتها» انطلاقاً من نظام فلسفي أخلاقي سياسي متكامل، تأثر فيه بأفلاطون، كما تأثر في حديثه عن النفس بأرسطو، ولكن بعد ان وصل اليه من طريق شروحات الاسكندر الأفروديسي (ما شوّه أفكار أرسطو وجعل من الممكن للفارابي أن يحاول التوفيق بينه وبين أفلاطون!).

رسم تخيلي للفارابي

طابع بريدي إيراني برسم تخيلي للفارابي

لعب كتاب «آراء أهل المدينة الفاضلة» دوراً أساسياً في تاريخ الفكر الإسلامي، حتى وإن كان في قسمه الأول يخالف (وبخاصة في بحثه في مسألة «الفيض»، والتمييز بين الحكمة والشريعة – وهو تمييز حاول ابن رشد لاحقاً دحضه في «فصل المقال»، ومسألة قدم العالم في الزمان) ما جاء في تعاليم الإسلام، ما سهّل على الغزالي التصدي له، في شكل غطى على أمور مدينة جاءت لدى الفارابي، ولم يكن فيها، هي، ما من شأنه أن يخالف الإسلام. مهما يكن من أمر ذلك السجال الحاد بين الفارابي والغزالي، فإن الأول ظلت، ولا تزال، له مكانته، ولا يزال ما بقي لنا من كتبه الكثيرة، يشكل جزءاً أساسياً من التراث الإسلامي نفسه.

نبذة عن المؤلف

أبو نصر محمد الفارابي: فيلسوف مسلم تركي الأصل، اشتُهر بجمعه بين علوم المنطق والسياسة والأخلاق، وقد لُقِّب بـ«المعلم الثاني» وكان له الأثر الكبير كبار فلاسفة المسلمين اللاحقين أمثال ابن سينا وابن رشد.

وُلد أبو نصر محمد بن محمد بن أوزلغ بن طرخان التركي الفارابي عام 260هـ/ 874م «فاراب»، وهي مدينة خراسان (إيران حاليًا)، وكان أبوه قائدًا الجيش. انتقل الفارابي من مدينته إلى بغداد، وهناك أَكَبَّ على تعلُّم اللغة العربية حتى أجادها، وأُتيح له أيضًا دراسة الموسيقَى، وإتمام دراساته اللغات والطب والعلوم والرياضيات، والتقى بمشاهير حكماء العرب أمثال «أبي بِشْر» وأخذ عنهم، وقد جذبته علوم الفلسفة والمنطق، فانغمس دراسة قديمها وحديثها، وخاصة ما زخرت به مؤلَّفات «المعلم الأول» أرسطو، التي أَوْلاها الفارابي اهتمامًا كبيرًا دراسةً وشرحاً وتحليلًا.

وقد ألَّف الفارابي معظم كتبه في بغداد، ثم انتقل إلى الشام، فمصر، وعاد إلى دمشق ثانية حيث قرَّبه سيف الدولة الحمداني، وضمَّه إلى مجلسه الذي كان مجمع الفضلاء في جميع المعارف، فلم يَزَلْ يحاور ويجادل حتى علا صوتُه على كل صوت وحاز منزلةً رفيعة، لكن تلك المكانة لم تعُد عليه بالمال والثراء؛ إذ كان من أزهد الناس، ولم يكن يحفل بمكاسب الدنيا. وظلَّ على تلك الحال منقطعًا إلى التعليم والتأليف حتى وفاته.

هذا، ولم يصل إلينا من مؤلَّفات الفارابي الغزيرة العدد إلا أربعون مؤلَّفًا، منها اثنان وثلاثون باللغة العربية، وستة وصلت إلينا مترجَمة إلى العبرية، ومؤلَّفان مترجَمان إلى اللاتينية، ولعل من أشهر كتبه «آراء أهل المدينة الفاضلة»، و«الموسيقى الكبير»، و«إحصاء العلوم والتعريف بأغراضها».

وفاته

يذكر معظم المؤرخين أن الفارابي قد توفي بدمشق في شهر رجب سنة 393هـ/ 950م عن عمر ناهز الثمانين عامًا ، وأن الملك سيف الدولة قد صلى عليه في أربعة عشر أو خمسة عشر من خواصه ، وأنه قد دفن بظاهر دمشق خارج الباب الصغير ، ويدل كلامهم على أنه قد توفي وفاة طبيعية.

المراجع

1 – ويكيبيديا
2 – مؤسسة هنداوي للثقافة
http://www.hindawi.org/books/97152818
3 – ابراهيم العريس – مقال «آراء أهل المدينة الفاضلة» للفارابي: خيال المبدع والأوطان السعيدة بجريدة الحياة
http://www.alhayat.com